آثار العرب الخالدة في اوربا (١)

اللهمَّ مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير

سادتي

افرؤكم تحية العرب فاقول لكل فرد : سلامٌ عليك . واتي بتحية الاسلام فاقول لكم جميعاً : السلام عليكم . واعزز هذه التحية المزدوجة بما اخذهُ الافرنج عن العرب فاقول لكم بمراعاة المعنى الاصلي الصحيح : Salamalek

***

هذه الكلمة الثالثة : ايها السادة وان كان الافرنج نقلوها الى معنى التملق والمبالغة في الخضوع والخنوع والخشوع لكنها في الحقيقة تدلنا على تأثير الحضارة الاسلامية على امم الغرب في اوربا . افليس من سنّة هذا الكون ومن نواميس العمران ان الاحتكاك بين الاقوام المختلفة واختلاط الشعوب المتباينة لا بد وان يترتب عليها تأثير لبعضها على البعض الآخر حتى يظهر هذا التأثير في الاحوال العامة وفي الشؤون الخاصة . ذلك التأثير مصدرهُ قوة الحضارة . فيكون ضعيفاً ضئيلاً او قوياً جسيماً بحسب ما وصلت اليهِ الامة الغالبة من الارتقاء في سلم المدنية و بقدر ما نالتهُ من السيطرة والرجحان

فايّما امة استبحر العمران بين ابنائها فلا بدَّ لها من التبسُّط في الارض والتغلب على الامم . فلا تلبث ان يكون لها سلطان (ولو معنوي) على البطون والعشائر التي تجاورها او تمازجها او تأتمر بكلمة منها . واثر ذلك يظهر للمتأمل المتفكر كتبين الصبح ووضح النهار في الامور المعاشية من زراعة وصناعة وتجارة . بل في الاخلاق والعادات والطباع . بل في العلوم والمعارف . بل في اللهو واللعب والجد والهزل والوقار والخلاعة

لست اذهب بكم بعيداً في اثبات هذه الظاهرة العمرانية وهذا الناموس الاجتماعي وانما اناشدكم ان تنظروا عن ايمانكم وشمائلكم وفيما بين ايديكم . افلا ترون الرجل من قومنا ممن يكاد لا يحسن التلفظ بلغة امهِ وابيهِ ولم يرزقهُ الله إلمامًا قليلاً برطانات الاعاجم . افلا ترونهُ يبادر صاحبهُ ومشاكلهُ عند ما يلقاهُ في ليل او نهار « بونجور مون شير بون سوار »

(١) محاضرة لسعادة احمد زكي باشا سكرتير مجلس النظار القاها في نادي موظفي الحكومة مساء ١٠ سبتمبر سنة ١٩١٢

افليس من الحقق المجزوم به أن ابناءنا سيقولون في الغيط وفي البيت « جود مورنج ماي دير · جودنيت ؟ » بل قد خرجت هذه الكلمة من افواههم

ذلك لعمري من خور النفوس وضعف الطبيعة وانحطاط الاخلاق · وقد يكون من باب التنطع عند العلماء ومن باب الحذلقة (والحفلطة) في انصاف العلماء واما الجاهلون فحسبهم انهم جهال · ويقيني ان التنطع والحذلقة من الامور التي لا بد لنا من محاربتها لنكون قوامين على لغتنا وذاتيتنا وليكون لنا سعي مشكور في احياء آدابنا واحياء بلادنا

على ان موضوعي في هذه الليلة يضطرني في كثير من المقامات الى التذكير بالفاظ اجنبية عن العربية لأبين لكم ما تركهُ اجدادنا من الآثار الباقية والمآثر الخالدة في الامم الاوربية · فعلى سبيل التمهيد ومن باب الدخول في الموضوع استأذنكم في القاء جملة صغيرة باللغة الفرنسية يتغلغل بها الكلام وليأخذ الحديث بعضهُ برقاب بعض

Messieurs, vous serez certainement ébahis et ahuris, lorsque je vous dirai que les vocables *ébahis* et *ahuris* sont de Souche Arabe !

لا جرم ان يأخذكم العجب ولتولاكم الدهشة اذا قلت لكم ان كلتي Ebahi و Ahuri مشتقتان عن جرثومة عربية محضة فالاولى (ونظيرها عند الطليان فعل baire) مأخوذة من قول العرب فلان حائر بائر · واما الثانية فهي من قولهم بهرت فلاناً فانبهر · فهل يصح لاحد ان يحار بعد الآن في ذلك الاشتقاق (وقد ظهر السبب فبطل العجب) وهذا كما ترى

اقف هنا قليلاً ولا ازيدكم علماً بان الفرنسيين كثيراً ما يستعملون كلتي Et voilà وتحليلها اللغوي « وانظر الى ذلك » او كما يقول عامتنا « اهو كده = هو كذا » ويضارع ذلك قول العرب : « وهذا كما ترى » وتلك الجملة ترد كثيراً في مسامرات ابي حيان التوحيدي مع وزير بغداد كما تراهُ في كتاب الامتاع والمؤانسة الذي احضرتهُ في هذا العام من خزائن القسطنطينية · وربما حاضرت قومي به وبموضوعه في فرصة اخرى

ذكرتُ لكم في الجملة الفرنسية كلمة ثالثة وهي كلمة Souche واصلها عربي ايضاً ولو نطقناها على طريقة الطليانية لقلنا : « سوكي » او لو بحثنا عما يقابلها عندهم لوجدنا Zicca و Zocco · فلو سقنا الآن آية من القرآن لظهر اصل الاشتقاق · قال الله تعالى في وصف الصحابة : رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من اثر السجود · ذلك مثلهم في التوراة · ومثلهم في الانجيل كزرع اخرج شطأهُ [فراخه وورقهُ] فآزرهُ فاستغلظ فاستوى على سوقهِ يعجب الزرّاع !

اخذ الافرنج كثيراً من طرق العرب واساليبهم في الزراعة كما سنبينهُ فيما يجيء . واخذوا معها الالفاظ تارة وهي في حالة المفرد وتارة في حالة الجمع . ومن هذا القبيل كلمة Souche التي نحن بصددها اخذوها عن « سوق » جمع « ساق » ثم حرفوها عن اصلها فنزلوا بها الى باطن الارض وجعلوها بمعنى الجرثومة والاصل . ثم توسعوا فيها فاطلقوها على جميع المعاني التي تدل عليها الجرثومة في اللغة العربية حسًّا ومعنى حقيقة ومجازاً

وهنالك الفاظ كثيرة جدًّا تدلُّ على تأثير العرب على الافرنج تأثيراً باقياً الى الآن . نعم ان المعالم قد ذهبت بها الايام والعوادي ولكن اثرها قد بقي فالاطلال تحدّث الباحث الشاعر وتستوقف المسافر وتناجي الضمائر والخواطر بما كان للعرب في تلك البلاد من المآثر والمفاخر

وسأعترف لكم نزراً يسيراً مما علمت انهُ مأخوذ عن العربية وقد تأصل في اللغة الفرنسية الجميلة (وما يتبعها من اللهجات الخاصة ببعض الاصقاع في فرنسا) وفي اللسان الطلياني (وما تولد عنهُ او منهُ من اللهجات الشائعة في شبه الجزيرة الطليانية وما اليها من الجزر الاخرى) وفي لغتي الاسبانيين والبرتغاليين (وما تفرعنا عنهُ او تفرّع عنها في ربوع الاندلس بحسب الاصطلاح الجغرافي العربي من الرطانات المتداولة الآن والتي قضى عليها ناموس النشوء والارتقاء بالدخول في خبر كان)

قلت لكم انني سأعترف من ذلك شيئاً ولست اتعدى كلمة الاعتراف قبل ان احيطكم علماً بان الافرنج اخذوا عنها كلمة Carafe الفرنسية و Caraffa الطليانية و Carabba الصقلية و Carrafa الاسبانية ولكنهم كلهم تطابقوا على نقل اللفظ العربي من المصدرية الى الاسمية . فهو عندهم لاناء من زجاج يوضع فيهِ الخمر والماء . ومن ذا الذي في مصر الآن اذا ذهب الى محل تجارة مذكور لا يكون قولهُ مفهوماً اذا طلب مشترى الكاراف . نعم ان الطالب والمطلوب يتفاهمان وكلاهما بغير العربية لا يتراطنان او هما به يتراطنان

لا اريد ان اتشبه بهذا البائع وبهذا المشتري فلا اجول امامكم في مضمار لست من فرسانهِ فإلمامي بالانكليزية قليل و بالالمانية هو والعدم سواء . و باليونانية كالصفر على يسار الارقام الى ما هنالك من لغات اخرى قد اخذت عن العربية طائفة صالحة من الالفاظ والمسميات مما يتعلق بالعلوم او بحاجات المعيشة والارتزاق كما اننا نأخذ الآن عنهم بعقل وبدون تعقل و بفكر و بلا تروٍ حتى اصبحنا عالة على تلك الالسنة الاعجمية فيما قد نجد لهُ بديلاً وعنهُ غناء في لغتنا . دع عنك الالفاظ التي يتواضع العلماء عليها لاغراض مخصوصة او لمستحدثات لم تكن معروفة . فهذا النوع من الالفاظ ملك شائع لجميع بني الانسان . وهكذا

سنة الله في خلقه : يوم لنا و يوم علينا وتلك الايام نداولها بين الناس

وانما أملي (استغفر الله) بل الواجب علينا جميعاً معاشر الناطقين بالضاد واهل مصر على التخصيص ان نتضافر ونتعاون في هذا العصر العباسي الزاهر وفي ظل مليكنا الرحيم و بعناية رجال حكومته الحاضرة فنكون عصبة واحدة ونعمل عملاً متواصلاً متوالياً حتى نتوصل لاحياء آدابها لتجديد العلوم فيها لايجاد بواعث الارتقاء . فتلك هي الخطة الوحيدة التي تجعل لنا مقاماً كريماً بين الناس كما كان لاجدادنا السابقين الى الغايات

أيها السادة . سبق لهذا العاجز الذي يناجيكم الآن انهُ القى محاضرة بين يدي سيدي العباس بمناسبة افتتاح الجامعة المصرية . وقد أبنت فيها ان اهل الاسلام انما تسنموا ذروة المجد بالرحلة الى الامصار و بقطع البحار عملاً بالامر الرباني الذي اوجب علينا المشي في مناكب الارض والسعي في طلب الرزق . والرزق على معنيين مادّي وأدبي كما لا يخفى

عمل اسلافنا بهذه الآية الحكيمة فنالوا ما نالوا وعكسناها فصرنا الى ما صرنا. هؤلاء نحن نرى مئات المصريين اذا جاء القيظ يقولون هلم بنا الى اوربا للاصطياف ! هذه رحلة الصيف التي كانت لائتلاف قريش ! وفاتهم ان رحلة الصيف كانت لكسب المال الحلال من التجارة وللاستفادة بالمنافع المرتبطة بالارتحال . اما قومنا الآن فالسواد الاعظم منهم يهرع الى اوربا في كل عام وانتم اعلم بالغرض الذي يرمون اليهِ و بالهدف الذي يرأمون عليهِ وحواليهِ . تراهم ينفرون خفافاً وثقالاً (استغفر الله) بل خفافاً متأبطين ما خف حملهُ وثقلت موازينهُ ورقاً يغني عن الورق تكذيباً للشاعر الذي قال لممدوحهِ

أهديتني ورقاً لم تهدني ورقا قل لي بلا ورق ما ينفع الورق

ولو عاش هذا الشاعر الى عصرنا لاكتفى من ممدوحهِ بالتوقيع على ورقة من السفاتج (التي يسميها اصحابنا بالكمبيالات) او من المصرف الذي يخزن فيهِ امواله بالامضاء على شيك من الشيكات . تلك الكلمة الثانية اصلها عربي عن اللغة الفارسية . فهي الصك وجمعهُ الصكوك أخذ الافرنج هذا اللفظ عن العرب في جملة ما اخذوهُ عنهم من اصطلاحاتهم التجارية والمالية فقال Chèque شيك

واصحابنا يهجرونا في الوقت الذي تحتاج فيهِ زراعاتهم الى عنايتهم . وفي ذلك ما فيهِ من الضرر عليهم وعلى بلادهم ناهيك بانهم لايتشبهون بالطير وهي كما يقول الناس صغار الاحلام . ليتهم تشبهوا بالطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً . واما اصحابنا فيتهافتون على اوربا بطاناً وقد تأبطوا ما جمعوهُ واقترضوهُ من المال و يرجعون الينا خماصاً بل صُفر الوجوه وصفر الجيوب

أفرأيتم اولئك الفلاحين الذين اغتاهم الحظ وهم لا يكادون يفقهون لغة امهم وأبيهم أفرأيتموهم حينما يقولون : انا ذاهبون للبلد الفلاني لاجل ال Cure . يقولون بافواههم ما ليس في قلوبهم كبر مقتاً عند الله ان تقولوا ما لا تفعلون وما هي ال Cure (الاستشفاء والتدبير الصحي) ؟ كلمة سمعوها فاعجبتهم غرابتها واستعملوها وهم لا يدرون لها معنى ولا يقيمون وزناً ولا يعملون على تحقيقها فعلاً وعملاً !

غير انني في هذا الشهر المبارك شممت بارقة من الأمل ولعلها مبشرة بغيث ينهمل في المستقبل واعني به المستقبل القريب . فقد تشرفت وجمهوراً كبيراً من اكابر الموظفين بتناول الافطار بالأمس على المائدة الخديوية في حضرة ولي الامر في مصر حفيد محمد علي ولا نقر الجالس على تخت المعز وبنيه القابض على صولجان صلاح الدين وذراريه الوارث لتاج الظاهر المتحلي باكليل الناصر المستوي على عرش المؤيد المتبوء لاريكة الاشرف مولانا وولي نعمتنا المعز الاشرف الحاج عباس حلمي الثاني محيي الآداب العربية

فقد حدثنا عن اعجابه بفتى من فتيان مصر رآه يجول في جبال الالب فيما بين فرنسا وسويسرا منقباً في بطون الوهاد منقراً فوق ظهور الاجياد مستجوباً صياصي الاجبال . وغايته من ذلك ان يتعرف ما ابقاه العرب هنالك من المآثر والآثار او ما تركوه من الدوارس والاطلال

ولم يكتف المليك بهذه الرعاية التي تطال فحواها رتاب المجتهدين من ابنائه بل بالغ في الفضل فاوصى رجال حكومته بان يساعدوا هذا الرجل (وهو محمود بك سالم) عند عودته ليتمكن من اتمام عمله الجليل وسيعود المشكور فيما يرجع بالفائدة على مصر خصوصاً وعلى الشرق عموماً

ولا ريب عندي ان رجال الحكومة فاعلون لانهم يقدرون كل عمل نافع حق قدره ولانهم قادرون على تعضيد كل مشروع مفيد

ولم أرَ في عيوب الناس عيباً كنقص القادرين على التمام

كيف لا والاشارة قد صدرت من الامير ادام الله لنا وجوده واتم عليه نعمه وايده بروح منه حتى يكون حكمة السعيد مرشداً الى سر التقدم الذي يتنبه لتجديد المكارم بفضل حشمه ورجاله الذين وهبهم الله من العلم والحكم ما يؤذن برفع شأن الامة المصرية . لهذا السبب اردت ان اتعجل في القيام بالمفروض عليَّ من امتثال هذه الاشارة والعمل بها فيما يدخل في دائرتي وتصل اليه مقدرتي . اردت ان امهد الطريق امام ذلك الصديق . حتى

اذا ما عاد بالسلامة محمود بك سالم وجد النفوس مشربة بفائدة المشروع ورأى الارض صالحة لهذا الغرس الطيب . فيكون شعارنا كلنا حيّ على خير العمل

ذلك هو البعث الذي نبتغيه بعد ان ظال السبات . ذلك هو النشور الذي ننشده للشرق فالحياة تتجدد في كل يوم عن يمينه في الشرق الاقصى وعن شماله في اوروبا واميركا وهو جامد في موقفه كأنه في البرزخ . أفلا تكون حركة من وراء هذا السكون ؟

نعم فالحركة من مميزات الحياة . ونحن والحمد لله فينا بقية وان كان بعض الناس ينظر الينا فيخالنا كالنائمين في البرابي او كاهل الكهف

بماذا تتجدد الحياة في الشرق ؟

بالرحلة لعمري كما ابتدأ دبيبها وكما انتعشت بها الامة العربية في ايام الامويين والعباسيين . فمن المعلوم ان الوسيلة الواحدة تنتهي دائماً الى غاية واحدة وان المعلول يدور مع العلة وجوداً وعدماً

فلعل هذه الخطة الجديدة التي كنت ولا ازال اسعى وراءها منذ ربع قرن تصبح سنة بيننا وانا اليوم على يقين من تحقيق الاحلام . فالداعي اليها اليوم ليس احد افراد الامة وانما هو صاحب التاج والناس على دين ملوكهم . وهذا واني لا ابيع الحكمة الاّ بحسن الاستماع ولا آخذ عليها ثمناً الاّ فهم القلوب وهذا كما ترى

يطربني وايم الله ان ارى هذه السنة الجديدة متداولة بيننا معاشر المصريين فيرحل المقتدر منا الى اوربا بشرط ان يجعل نصب عينيه العمل على الاستفادة مما وصل اليه أهلوها في حلبة الفضل وميدان التقدم

لست انكر على الراحلين ان يضيعوا معظم وقتهم وان يصرفوا جل ما لهم في لذات انفسهم وشهوات بطونهم . ولكني اناشدهم الله واناشدهم امهم (مصر) ان يجعلوا الثلثين لهم والثلث لها وان يعملوا بقول الشاعر

ولله مني جانب لا اضيعهُ وللهو مني والخلاعة جانبُ

بل اكتفي منهم بان يخصصوا لوطنهم نصيباً زهيداً من اغترابهم . فالذرة يتكون منها الطود الشامخ والقطرة هي اصل العباب الزاخر . أملي فيهم ان يعودوا الينا بكتاب من كتب اجدادنا التي ليست في خزائننا (والخطب سهل فما عليهم الاّ ان يصدروا امرهم لاي انسان من المشتغلين بالنقل بواسطة التصوير الشمسي) . املي فيهم ان يرجعوا الى اهلهم واهل بلادهم بفائدة (والامر ميسور فما عليهم الاّ ان ينظروا بالعيون التي خلقها الله وان يعتبروا

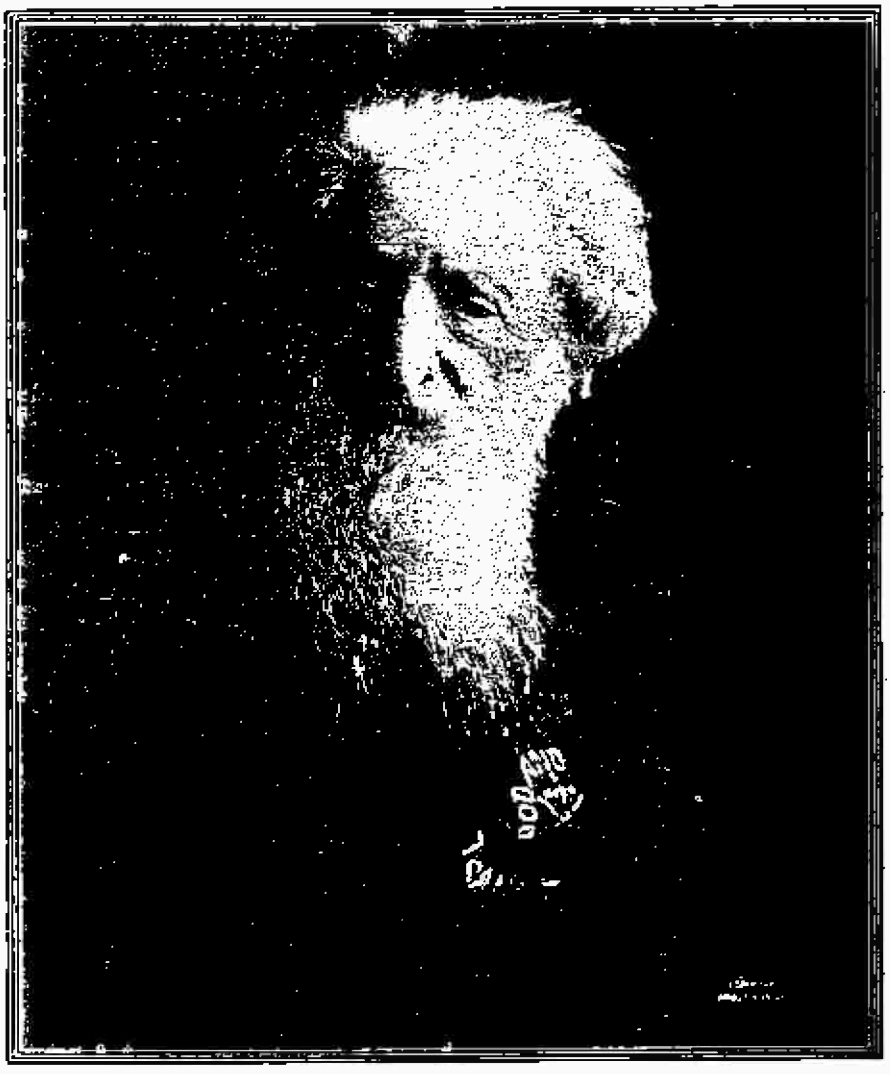

الجنرال بوث

بالعقول التي اودعتها الحكمة الربانية في رؤوسهم ! ان في اوربا الآن لآية لمن كان لهُ قلب او القى السمع وهو شهيد

فكما كانت انرحلة سبباً في تقدم الشرق في ايام السلف الصالح فكذلك تكون ان شاء الله بفضل الجيل الحاضر ومن يتلوهُ من الذراري والاعقاب ستأتي البقية احمد زكي

الجنرال بوث

« ان الامور اذا انسدَّت مسالكها فالصبر يفتق منها كل ما ارتجا
لا تيأسنَّ وان طالت مطالبةٌ اذا استعنت بصبر ان ترى فرجا
أخلق بذي الصبر ان يحظى بحاجتهِ ومدمن القرع للابواب ان يلجا »

من كتاب الحماسة

اذا لم يصدق هذا القول على احد من الانام صدق على فقيد الهمة والاحسان الجنرال بوث الذي انشأ ما يسمّى « بجيش الخلاص » فانهُ توخى غايةً سعى اليها فسفَّه الناس رأيهُ وحسبوهُ من مثيري الفتن وموقعي الحمى وحجنوا اتباعهُ مراراً اما هو فواصل السعي وادمن القرع وصبر صبر الكرام الى ان شهد لهُ الخاص والعام انهُ من اكبر المصلحين

ولما توفي بالامس احتفلت الامة الانكليزية بدفنهِ احتفالاً عظيماً ولعلها لم تحتفل بدفن احد من علمائها وقوادها وامرائها ورؤساء الاديان فيها كما احتفلت بدفن هذا الرجل الذي عدتهُ في اول امرهِ متهوساً تخيل الشعور يسعى الى غرض لا ينال وغاية لا ترجى او يتوخى نفع نفسهِ تحت ستار نفع غيرهِ

ولد سنة ١٨٢٩ ولما بلغ الخامسة عشرة من عمرهِ قام فيهِ ميل شديد الى التدين والوعظ والارشاد حسب الطريقة الوسلية . وجاء مدينة لندن وعمرهُ عشرون سنة وفي عزمهِ ان يقف في الساحات العمومية يعظ الناس ويرشدهم . وهي خطة جرى عليها كثيرون من دعاة النصرانية من قديم الزمان ولكن اهل الطريقة الوسلية لم يستحسنوها فانفصل عنهم واتصل بطريقة اخرى وتزوج وانقطع للوعظ والارشاد هو وزوجتهُ . والغرض الذي يرمي اليهِ ردع الناس عن الشرور والمفاسد وتحبيب الفضيلة والتقوى اليهم فانضم اليهِ جماعة من الجناة الذين سمعوا وعظهُ فتابوا ووعدوا باصلاح سيرتهم وسريرتهم . ثم كثر عدد اتباعهِ